الفتوة عنـــــد الصوفيين

للأستاذ عبد الموجود عبد الحافظ

(مهداة إلى الأستاذ ضياء الدخيلي ، لمناسبة ما كتبه من أبحاث قيمة عن الفتوة في الإسلام وفي كتب اللغة والأدب وحياة الفتيان في الجاهلية والإسلام ؛ أوحت إلى كتابة هذا المقال)

ع . ع

الفتوة : فعولة من لفظ فتى ، كالإنسانية من الإنسان والمروءة من المرء ، والفتى هو الشاب حدث السن ، قال الله سبحانه وتعالى عن يوسف عليه السلام « ودخل معه السجن (فتيان) — وقال (لفتيانه) » وقال عن قوم إبراهيم عليه السلام إنهم « قالوا سمعنا (فتى) يذكرهم يقال له إبراهيم » وقال عن أهل الكهف « إنهم (فتية) آمنوا بربهم » من هذا ترى أن الفتى اسم لا يشعر بمدح أو ذم كالشاب والحدث .

وللصوفيين رأيهم في الفتوة كما لغيرهم من اللغويين والأدباء والشعراء آراؤهم ، وكل يستعملها حسب هواه ، ويلبسها الثوب الذي يعجبه ويهواه ، فهم يستعملونها فيما يوافق تعاليمهم ويساير مذاهبهم ، في معاملة العبد لنفسه وصلته بغيره من الناس وصلته بخالقه جل شأنه ، وقد اصطلحوا على أنها منزلة من منازل الإحسان إلى الخلق ، وكف الأذى عن الغير ، والصبر على مايصدر منهم من أذى وسوء فعل ، وأنها الطريق الموصل إلى الذات العلية والحضرة الربانية ، وأنها نوع من أنواع المروءة : والمروءة ترك العبد مايشين أخلاقه أو يعود بالضرر على سواه ، والتحلي بمحاسن الأخلاق وحميد الصفات وكريم السجايا . فالفتوة عندهم كما قال قائلهم (الفتوة أن يكون المرء أبدا في أمر غيره) وهم يجعلونها منازل ودرجات كالأكثرية من تعاليمهم ، فهي عندهم ثلاث منازل أو ثلاث درجات .

المنزلة الأولى ، وتخص معاملة المرء لنفسه دون غيرها ، فيلزم من يتحلى بصفة الفتوة ، أن يترك الخصومة فلا يخاصم أحداً من عباد الله ، ولا يجعل نفسه خصما لأحد سواها ، فهي خصمه الذي يجب عليه أن يخصه بالمخاصمة ويقف منه موقف الحذر والترقب ولا يجعل لها سلطاناً عليه ولا يتبع هواها ، لينجو من سوء ما تأمر به وعاقبة ما تسول له . وفي ذلك قال بعضهم : (الفتوة أن لا ترى لنفسك فضلا على غيرك ، وأن لا تتخذ لك عدواً سواها) . وقال الشبلي : (الفتوة أن لا تكون خصما لأحد سوى نفسك والشيطان) .

والفتى لا يخاصم بلسانه ولا ينوي الخصومة بقلبه — كما يفعل البعض الآن وما عليه الغالبية العظمى اليوم — ألسنتهم رطاب ، وبطائنهم أكباد سوادي — ولا يخطرها بباله وإن خاصم أو حاكم ، فيجب أن يكون خصامه أو تحاكمه في الله وإلى الله ، وله في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ؛ فقد كان يقول في دعاء الاستفتاح : (وبك خاصمت ، وإليك حاكمت) .

— وأن يتغاضى عن هفوات غيره ، ويتغافل عن زلاتهم . وإذا رأى من أحدهم هفوة ، أو أخذ عليه زلة وجب الأخذ بها ، أظهر أنه لم يلحظ منه شيئاً حتى لا يعرضه للوحشة والخجل ، ليعفيه من تحمل مشقة العذر .

حكى أبو عثمان الدقاق رحمه الله قال : إن امرأة أتت حاتما فسألته عن مسألة ، وفي أثناء وجودها خرج منها صوت ، فظهر الخجل عليها وبان في وجهها ، فلما رأى ذلك منها قال لها ارفعي صوتك ، ليوهمها أنه أصم لم يسمع ما تقول ، فسرت المرأة وسرى ذلك عنها وقالت إنه لم يسمع الصوت ، فلقبوه من ذلك الوقت بحاتم الأصم .

وحكى غيره أن رجلا بنى بامرأة ، فلما دخل بها رأى بها الجدري فقال ، اشتكيت عيني ، وتصنعت العمى ، وبعد عشرين سنة ماتت زوجه ولم تعلم أنه بصير ، فقيل له لم فعلت ذلك ؟ قال كرهت أن يحزنها رؤيتي لما بها ، فقيل له : سبقت الفتيان .

— وأن ينسى إيذاء الناس له ، ويجاهد نفسه في نسيان ماناله من الضرر وينظر إلى من ناله بأذى نظر الصديق المتسامح واسع الصدر كريم النفس ، إلى صديق له زل أو هفا ، حتى لا يستوحش الناس وينفروا منه . قال عمر بن عثمان : (الفتوة حسن الخلق) وقال الجنيد : (الفتوة كف الأذى وبذل الندى) .

ولا يبلغ درجة الفتيان ويدخل في زمرتهم من نسي إساءة الناس له وتغاضى عن هفواتهم ، إلا إذا نسي كذلك إحسانه إلى من أحسن إليه وأسدى إليه معروفاً حتى يعتقد أنه لم يحسن إليه ولم يصدر منه ما يستوجب الشكر ، لأن ما أحسن به هو

من عند الله. فالواجب أن يشكر هذا المحسن إليه لأنه جعله بشكر الله الذى وهبه هذه النعم وأفاض عليه من خيره وبره . وهذا النوع من الاحسان أعظم درجة وأرفع منزلة من السابق ، وفيه قال بعضهم :

ينسى صنائعه والله يظهرها إن الجميل إذا أخفيته ظهرا

والمنزلة الثانية هى منزلة الاحسان إلى الغير ، وهى أعلى مرتبة من الأولى ، لأنها تلزم المتحلى بها أن يقرب من أقصاه عن مجاسه وطرده من حضرته ، وأن يحسن إلى من أساء إليه ويكرم من أهانه ويعتذر إلى من اعتدى عليه ، ولا يتصف صاحب هذه الفعال بصفة الفتوة إلا إذا كانت أفعاله هذه عن تواد وسماحة لا عن مصابرة وكظم ، ومن قوة وقدرة لا عن جبن وضعف ، وفضلوا هذه المنزلة على سابقتها ، لأنها تتضمن التغلب على عدوين ، النفس ومقابلة الشىء بضده ، فيكون خلق الفتى الاحسان والعفو ، وخلق غيره الإساءة والإيذاء ، وفى هذا قال قائلهم .

إذا مرضنا أتيناكم نعودكم وتذنبون فنأتيكم فنعتذر

حكى أن رجلا من حجاج بيت الله ذهب لزيارة القبر الشريف ونام فى المدينة ففقد مالا له ، فلما صحا من نومه فزع لضياعه ، ووجد جعفر[1] بن محمد قريباً منه فعلق به وقال له : أخذت مالى ! فقال : كم هو ؟ قال : ألف دينار . فأخذه جعفر حتى أدخله داره ووزن له قدر ماله . ثم إن الرجل عثر على ماله ، فعاد إلى جعفر يرد له المال ويعتذر عما صدر منه ، فأبى جعفر أن يقبله منه ، وقال : هذا شىء أخرجته من يدى لا أسترده أبداً . فسأل الرجل الناس : من هذا ؟ فأخبروه أنه جعفر بن محمد رضى الله عنه فقال : إنه خير الفتيان . ثم قيل لجعفر : كيف تعتذر لمن جنى عليك ، وتحسن إلى من أساء إليك ، ولم يصدر منك ما يوجب الاعتذار . ألم يكن كافياً أنك لم تؤاخذه ؟ ألست باعتذارك إليه أنزلت نفسك منزلة الجانى لا المجنى عليه ، والجانى خليق بالعذر . فقال لهم : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » .

فهو يعزو ما أصابه إلى ذنب صدر منه ، وأن هذا هو الانتقام الإلهى الذى يجب أن يناله كل مذنب . ومن كانت هذه حاله فهو بالاعتذار أولى وأحق إلى من جنى عليه ، وشكره والإحسان إليه . فمن كانت هذه حاله مع من أساء إليه عفا عنه وأحسن إليه مع ضعفه وفقره وحاجته إلى سواه ، فبأعظم من هذا يكافئه الفتى الذى وسع ملكه السموات والأرض وشمل إحسانه المؤمن والكافر والطائع والعاصى ، فيعفو عن إساءته كما عفا عن إساءة عبده ، فالجزاء من جنس العمل .

وقال ابن عياض رحمه الله « الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان » وقال غيره « من أحوج عدوه إلى شفاعة ولم يخجل من المعذرة إليه لم يشم رائحة الفتوة » ومعنى هذا القول أن من أساء إليك ونالك ضرره ، إذا علم أنك متألم مما وقع منه ، احتاج إلى أن يتقدم إليك معتذراً ، أو يلجأ إلى شفيع يشفع له عندك ليزيل ما فى قلبك من كدر ، ويغسل ما علق به من زعل . فالفتوة كل الفتوة أن لا تظهر له العتب . ولا تثير ما كان منك له قبل الذى صدر منه ، ولا تحول عنه وجهك حتى لا تحوجه إلى طلب الصفح والشفاعة ؛ وإن لم تفعل ذلك وتخجل من قيامه بين يديك مقام الذلة والاعتذار لم يكن لك من الفتوة أو فى نصيب .

فالفتى الحق من تغاضى عن عثرة غيره ولم يأخذه بذنب أتاه أو جرم اقترفه ، بل يجب أن يكون معه سمحا كريما يعامله معاملة صادرة عن سماحة خلق وطيبة نفس وانشراح صدر ، لا عن ضيق وكظم غيظ ومصابرة ، لأن هذا يعتبر تكلفاً وتصنعاً يوشك أن يزول وتبدو الأخلاق واضحة ، وتظهر الصفات جلية فيفتضح أمره بين الناس ، فإن التخلق يأبى دونه الخلق .

والمقصود من هذا أن يصلح الفتى باطنه كما يجمل ظاهره ، وأن ينفى نفسه من الشوائب كما ينظف ثوبه من الأقذار . كان بعض أصحاب شيخ الإسلام ابن تيمية رضى الله عنه يقول : وددت أنى لأصحابى مثله لأعدائه وخصومه ، ما رأيته يحمل حقداً لأحد منهم قط ، وما سمعته يدعو على أحدهم ، بل كان يدعو لهم ويطلب لهم من الله العفو والغفران . ثم قال : جئته يوماً أبشره بموت أكبر أعدائه وأشدهم عداوة وأكثرهم إيذاء له ، فنهرنى وتنكر لى وأشاح عنى واسترجع ، ثم قام من فوره إلى بيت الميت فعزى أهله وقال لهم : أنا لكم مكانه ، لا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة أو عون إلا ساعدتكم فيه وعاونتكم عليه ، ونحو هذا الكلام ، فسروا به ودعوا له وأعظموا هذه الحال منه . ولما سمع أحد المتصوفين بخبر هذه الواقعة قال : (خير الفتيان من كانت له فى هذا أسوة وبه قدوة) .

(الكلام بقية)

عبد الموجود عبد الحافظ

(١) هو الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه .